(١٢)
يعقوب الأصفر

عندما تلتقي الشياطين على طريقٍ واحدٍ فلا شك أنهم سيتوجون الشر ملكا عليهم ، ولنقل على الخير السلام ، ولنودع الحق والأمن لنستقبل الغدر والقتل .. وعد ويعقوب شيطانة وشيطان ، طموحٌ واحد ، وغاياتٌ مشتركة ، غير أنَّ الأولى شيطانةٌ عاقلة ، والآخر شيطانٌ مجنون ، أو شيطانٌ عاقل يتظاهر بالجنون ، جمع بينهما الحبُّ ، حبُّ الشر وحبُّ المال بأي ثمن دون حد ، كما جمع بينهما الكره والحقد ، فكلٌّ منهما يكره الأغنياء ، وكلٌّ منهما يحقد على كلِّ صاحبِ نعمةٍ ومال ، ومتعتهما الكبرى أنْ يجدا غنيا في ورطة .. أما عن تقارب الجسدين ، فقد حاول يعقوب معها أكثر مِن مرة ، أراد توطيد علاقة غير سوية بها على هامش العمل الشيطاني المشترك ، بدأها باسم الحب مرة أو مرتين ، ثم مرات تحت تحرشات الجنس ، لكن قلبها كان قد خفق الخفقة الوحيدة بحياتها لمجنون آخر ، هو الدكتور مالك الأمير.. والعهد أنْ يُطَهِّرَ الحُبُّ الصادق القلوبَ الآثمة ، ويظل أسمى مطهِّر.. فماذا سيحدث مع وعد؟

ها هو مالك الأمير بعد أن عالجه طبيبٌ حتى استرد الكثير مِن حالته الطبيعية يُعيد عليها أنه يشعر بتأنيب الضمير بسبب علاقتهما الآثمة ، ولا يستطيع بسبب زواجها أنْ يتزوجها .. قال لها :

- وعد .. ما آخر أخبار سالم زوجك؟
- لماذا تسأل عنه الآن؟
- لأعرف ما الذي فعلتِه معه في موضوع طلاقكِ منه

- هو يعاند معي .. لا يريد أنْ يطلقني
- والخلع؟
- يبدو أنَّ الموضوع صعب يا مالك

فقال مالك غاضبا :

- وعد .. سأترك الشقة .. سأتركك
- مالك أرجوك .. أنا أحبك ولا أستطيع تحمل ذلك
- وأنا أحبك لكننا نرتكب الفاحشة معا كل يوم
- مالك نحن حبيبان .. فماذا في ذلك؟
- أنا لا أحب ذلك وأريد أنْ أتوب .. ولن أتوب إلا بالزواج منكِ أو مغادرة شقتكِ

فراحت وعد تبكي وتحتضنه قائلة :

- مالك إنْ تركتني سأموت .. ستتحول حياتي إلى جحيم
- وأنا يا وعد ستكون آخرتي جحيم إنْ بقيتُ أطاوعكِ

فنظرتْ له وقالت بكل إصرار:

- مالك .. سأجد حلا .. هذه المرة أقولها لكَ وأنا على يقين أني سأجد الحل
- ما هذا الحل؟
- أي حل يا مالك غير أنْ تفارقني
- فيم تفكرين يا وعد؟
- لا تقلق سأجد حلا

ولم تنم الغجرية العاشقة ليلتها ، بل ظلتْ عيناها مغمضتين بجانبه طوال الليل ، لكن عقلها كان يقظا يفكر فيما يجب أنْ تفعله لتُبْقِي حبيبها معها .. كانت تتعجب مِن حالتها التي صارت لها بسبب العشق ، وكانت تنقم على نفسها أنْ ذهبتْ بمالك إلى الطبيب النفسي الذي عالج كثيرا منه ، فاستيقظ مع هذا العلاج إدراكه لكثيرٍ مِن الأمور ، وصار ينتبه لحدود الحلال والحرام ، حتى لقد تمنَّتْ لو ظلَّ بالجنون الذي قابلته عليه ، لكن حدث ما حدث ، فلتفكر في شيء ، أي شيء مِن أجل بقاء حبها الأول والأخير.

ويبدو أنَّ تفكير الليل قد هداها لشيء .. فذهبتْ منذ الصباح الباكر بسيارتها إلى عزبة الهجانة لتقابل صباح أم زهرة زوجة سالم الأخرى ، وكانت صباح قد نقلتْ سكنها إلى هناك ، وأرادت وعد أنْ تلحق بها قبل الخروج للعمل .. وصلتْ فوجدتها على باب الشقة تستعد للنزول .. احتضنتها وطلبتْ منها صباح الدخول ، فدخلتْ وعد وسألتها عن زوجيهما سالم فقالت لها صباح :

- هو بخير والحمد لله

فأخذتْ وعد نفسا عميقا ثم قالت :

- سالم لا يريد أنْ يطلقني يا صباح

فابتسمت صباح وقالت :

- والله سالم طيب جدا يا وعد .. لماذا تريدين الطلاق؟

- صباح ماذا تقولين؟! .. هل صرتِ تحبينه؟!

- إنها العِشرة يا وعد

- وخيانتكِ له يا صباح؟ .. وابنتك زهرة .. تلك التي كبرتْ وصارت تعمل في مصنع للملابس .. هل نسيتِ ممن أنجبتها؟

فغضبتْ صباح وقالت :

- وهل أنتِ ملاك يا وعد؟ .. أنتِ مثلي تماما

- أنا لا أنكر أنى شيطانة .. وما زلتُ شيطانة .. لكني مندهشة إذ رأيتكِ أيتها الطيبة تتحدثين عن طيبته وتستغربين طلبي الطلاق منه

فابتسمتْ صباح ابتسامة هادئة وقالت :

- وماذا فى ذلك؟ .. بالنسبة لي فإنَّ سالم طيب ولا أريد الطلاق منه

- وماذا لو عرف أنه لا يُنجب؟

- ومِن أين يعرف؟

- افتراضا .. ماذا لو عرف؟ .....

- طبعا ستكون مصيبة على رأسي وعلى رأسك

- إذن ليس هناك إلا حل واحد يا صباح

- ما هو؟

- الموت .. أنا وأنتِ مِن مصلحتنا أنْ يموت سالم

ولم تفهم صباح على الفور مقصدها ، فقالت كلاما أذهل وعد وأغضبها :

- بعد الشر عنه .. الأعمار بيد الله يا وعد وقد نموت قبله .. ربنا يحسن ختامنا

فصرختْ فيها وعد قائلة :

- ماذا حدث لكِ يا صباح؟

- لم يحدث لي إلا كل خير يا وعد .. وأدعو لكِ بالهداية مثلي

- صباح .. هل أنتِ طبيعية؟

- لقد أصبحتُ طبيعية بفضل الله ورحمته وكرمه

- هل صرتِ غبية أم صرتِ شيخة يا صباح؟ .. منذ متى وأنتِ بهذه التقوى؟
- ألا تعرفين؟ .. لقد اصطحبني سالم للعمرة منذ شهرين

فبرقتْ عينا وعد استغرابا ، ثم قالت وهي تنهض ناحية الباب :

- تقبل الله منكِ ومنه .. سلاااام يا شيخة صباح

ونهضتْ صباح وراءها ، لكن وعد لم تلتفت لها ، ونزلتْ درجات السلم غاضبة مسرعة إلى سيارتها .

قادت السيارة وعقلها يدور حول التغير الذي حدث لصباح .. تتساءل : هل تابت صباح فعلا عن كل شيء حرام بعد عمرتها وبعد نقلها للشقة الجديدة أم أنها صارت تحب سالم أم الاثنين معا؟ .. لكن ماذا يفيدها مِن ذلك؟ .. فلتذهب صباح بتوبتها إلى الجحيم .

هكذا قالت لنفسها في النهاية ، فلتفكر وحدها في مصيبتها .. فالأهم عندها هو أنَّ سالم قد صار عثرة كبيرة في سبيل حبها واستقرارها مع مالك ، وعثرة أيضا في سبيل طموحها نحو تحقيق حُلْم الثراء ، فإنَّ وجود زوجها سالم حيا لا شك سيجعل عشيقها مالك يتركها لتكتوي بنار الشوق له ، وأيضا ماذا لو اكتشف سالم أنه لا يُنْجِب؟ .. ستكون مصيبة كبرى وفضيحة قد تصل إلى ياسين وهايدي ، وقد يقتلها سالم نفسه أو يقتلها ياسين .. إذن لا بد مِن قتل سالم السعدي .

كان ذلك الهدف هو الشاغل الذي صار ذهنها لا يخلو مِن التفكير فيه .. فكرتْ في طرق كثيرة لقتله على أنْ يبدو الأمر موتا طبيعيا .. لكنها تحتاج إلى اليد المعاونة التي تعينها على مكرها وحيلها التي لا تنتهي دون تراجع ، ودون توبة ، فها هي صباح يبدو أنها قد خرجتْ عن طريقها ، فلتبحث عن يد أخرى غيرها .

لكنها قبل أنْ تبدأ البحث جاءتها اليد المطلوبة حتى مكان عملها في الإشارة .. اقترب منها رجلٌ في عينيه شروخبث ومكرشديد ، ويبدو مِن هيئته وملابسه ووقفته أنه مجنون ، لكنه ليس كأي مجنون .. سألها الرجل كأنه يستجوبها :

- هل تعرفين مكان مالك؟

نظرتْ إلى ملابسه المتسخة ولحيته الكثيفة المعقَّدة لتتأكد مِن أنه مجنون بالفعل ، فقد خرجتْ كلماته مِن فمه فوقعتْ على أذنها وقعا يوحي بأنَّ قائلها عاقل .. قالت :

- مَن أنتَ؟
- أنا صديقه يعقوب الأصفر

فضحكتْ وقالت له :

- فعلا والله أصفر
- علام تضحكين؟ .. ألا يعجبكِ شكلي؟
- هل أنتَ مصري؟
- بالتأكيد مصري ابن مصري
- أشك في ذلك
- لِمَ؟
- لا عليكَ .. لماذا تسأل عن مالك؟
- قلتُ إنه صديقي
- ولماذا جئتَ تسألني أنا عنه؟
- الناس هنا أخبروني أنكِ تعطفين عليه وتعرفين مكانه

فحركتْ رأسها وفكرتْ قليلا ثم أخبرته :

- تعال هنا غدا وسيكون موجودا

فنظر لها يعقوب نظرة خبث مبتسما قائلا :

- طبعا مِن أجل مالك سآتي وأنتظر العمر كله

فقالت وعد في نفسها : (ما لهم المجانين هذه الأيام؟! .. نظراتهم وكلماتهم أعقل مِن العقلاء)

وفي المساء أخبرتْ مالك عن صديقه يعقوب الأصفر فضحك ضحكة مشوبة بالقلق قائلا :

- أخيرا ظهرتَ يا يعقوب .. ربنا يستر

قالت له باستغراب :

- لماذا تقول ذلك؟

- لا شيء .. لكن فقط احذري منه

فقالت تستفسر منه أكثر:

- لماذا شعرتُ بأنَّ يعقوب هذا أشبه بالشيطان يا مالك؟

ضحك مالك وقال جادا :

- يعقوب هو الشيطان نفسه

- يا ساتر

- احذري منه يا وعد كما قلتُ لكِ

- كلامه والله يدل على أنه إنسان عاقل

- فعلا هو إنسان عاقل جدا .. وحاقد جدا على الناس

- ولماذا يبدو مجنونا؟!

- يريد أنْ يمتلك الدنيا .. يَحْلُم ويخطط لأنْ يكون غنيا جدا
- مِن الواضح أنه ماكروذكي
- جدا جدا

وشعرتْ وعد بكثير مِن العجب مما تسمع ، وأكملتْ تسأل مالك عنه لتعرف الكثير والكثير ، وأحسَّتْ أنها اقتربتْ مِن اليد الباطشة التي تبحث عنها لتعينها في شرورها .. سألت :

- كيف ينفق يعقوب على نفسه وبيته؟
- لديه أموال كثيرة جمعها مِن النصب والسرقة
- والقتل .. هل قتل أحدا مِن قبل؟

ضحك مالك وقال :

- قال لي مرة إنه قتل شخصا مِن أجل سرقته

فصاحت وعد تسأله في دهشة :

- حقا !.. وهل صدقته؟
- لقد سألته إنْ كان ما قاله صدقا فابتسم وعاد فقال إنه كان يمزح معي
- مِن الواضح أنه شرير جدا يا مالك
- شره فوق ما تتخيلين

وسألتْ وعد باستغرابٍ :

- ولماذا تصادقه يا مالك؟
- القدر أسلمنا لبعضنا فتصادقنا
- كيف يتصادق شيطان وملاك؟!
- ليس لديَّ ما يطمع فيه يا وعد فأخاف منه

وفي الصباح صحب مالك وعد حيث مكان عملها بالإشارة ، ولم يكن يعقوب موجودا ، فجلس مالك قريبا منها لأكثر مِن ساعتين ينتظره حتى جاء مِن بعيد ينادي باسمه :

- مالك .. مالك

نهض مالك مِن مكانه وأقبل يعقوب يتحسس ملابسه ويتعجب مِن شكله الجديد ونظافته :

- ما هذا الجمال يا مالك؟ .. هل شُفِيتَ مِن الجنون؟

- الحمد لله

واقترب يعقوب مِن مالك يقول له بصوتٍ منخفضٍ :

- هل كل ذلك بسبب المتسولة الجميلة؟

فرمقه مالك بنظرة غضب ، ولم يرد على سؤاله ، بل راح يسأله :

- هل أنتَ جائع؟

- نعم جدا

فناوله كيسا بلاستيكيا بيده قائلا :

- يوجد بالكيس سندوتشات .. فاجلس وكُل يا صديقي

تناولها يعقوب وجلس جانبا وراح يأكل ، وجلس بجانبه مالك ينظر له ويبتسم مِن منظره وهو يلتهم الطعام ، ثم جاءهما طفلٌ بكوبين مِن الشاي ، وضعهما أمامهما وهو ينظر لهما قائلا :

- الشاي مِن الست وعد لكما .. هيا اشربا أيها المجنونان

فضحك الاثنان ، ونهض يعقوب مِن مكانه ناحية الطفل مازحا يقول له :

- انتظر حتى يسلخ المجنون الشرير جلدك .. سوف آكلك فقط يا ولد

وأسرع الطفل جاريا مِن أمامه ، وعاد يعقوب فجلس ليكمل طعامه ، ثم جاءت وعد فوقف لها يعقوب سريعا ، ورفع يده يؤدي التحية لها كمن يؤدي تحية عسكرية ، فنظرتْ له قائلة :

- يا أخي والله أنتَ لا تريحني .. اجلس

جلس يعقوب ، وجلستْ وعد تنظر له وتراقب حركاته في حين قال له مالك :

- أين تنام الليل الآن يا يعقوب؟

ضحك يعقوب ضحكة متقطعة ثم قال :

- كل الشوارع حجرات نومي الواسعة .. وكل الأرصفة سرائر مريحة لي

ضحكتْ وعد وقالت :

- وأين حمامك أيها الظريف؟

فأجابها مبتسما ثم ضاحكا :

- يا سيدتي .. حمامي في ظلال الشجر .. وعندما تعرق ثيابي أغسلها تحت المطر

نظرتْ له وعد نظرة ساخرة قائلة في نفسها : (ما لهذا المجنون!) .. وعاد مالك ليسأله :

- صحيح .. أين تنام حاليا؟

قال يعقوب وقد توقف عن الضحك وسلك سبيل الكلام الجاد :

- بالأمس نمتُ قريبا مِن هنا بجوار سور الحديقة الدولية

- وقبل ذلك .. أين كنتَ منذ آخر مرة كنا معا؟

- في العباسية وعبده باشا

ونظرتْ وعد لمالك تشير له وتحذره بعينيها خوفا ألا يعرض عليه المبيت معه بالشقة ، وكان مالك بالفعل قد فكَّر في ذلك ، فلما أشارت له وعد فهم مقصدها ، فتراجع عن ذلك ، وسأل يعقوب مالك وهو يتنقل بعينيه بينه وبين وعد :

- وأنتَ يا صديقي .. أين تقضي حياتك الجميلة النظيفة تلك؟ .. وأين تبيت ليلكَ الطويل؟

فأسرعتْ وعد تجيب :

- هو حتى الآن يبيت عند أحد أقاربه

- أين يا مالك؟

فأسرعتْ وعد أيضا تغير مجرى الحديث قبل أنْ يجيب مالك ، فسألته :

- أخبرنا أنتَ .. أين تذهب عندما تختفي؟

فنظر لها يعقوب وقال ضاحكا بطريقة هستيرية :

- وما شأنكِ بي؟ .. لماذا تسألين؟

فقالت وعد بغضب :

- مجرد سؤال

فابتسم لها ثم قال بصوتٍ منخفضٍ :

- إنْ كنتِ ستهتمين بي وتعطفين عليَّ مثل مالك فسوف أخبركِ بكل شيء

فنظر له مالك نظرة غضب ثم قال :

- احذر في كلامك يا يعقوب .. لا أريد أنْ أخسرك

فوقف يعقوب ونظر لمالك ثم نقل عينه إلى وعد ، وأوقفها عليها وهو يقول :

- وأنا طبعا لا أريد أنْ أخسر صداقتك يا صاحبي .. أنا ذاهب الآن ومكاني بجوار سور الحديقة الدولية إنْ أردتني .. سلاااام

وعمدا كان يعقوب يوجه كلامه الأخير لوعد .. بالطبع هو يراها متسولة ، ويراها امرأة فائرة الأنوثة والجمال ، وينتظر منذ رآها تلك اللحظة التي تذهب له فيها جاثية أمامه ، فهو يتعامل مع كل الناس خاصة النساء على أنَّ وسامته ظاهرة للجميع رغم قذارة هيئته .. يتفاخر دائما بشعره الناعم ووجهه الأشقر وعينيه الملونتين وطوله الفارع ، ولذلك فهو يرى نفسه قياسا بمالك أكثر منه جاذبية للنساء .

هذا رأي يعقوب في نفسه ، لكن رأي وعد فيه مختلف ، فهي تمقت شكله منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها ، وترى مالك أكثر الرجال وسامة وشخصية وجاذبية ، ففي رأيها ليس صاحب كل عينين ملونتين جاذبا للنساء ، منهم الكثيرون تأنفهم العين وتراهم منبوذين .

ومع ذلك فقد أخبرتْ وعد حبيبها مالك في وقتٍ متأخر مِن مساء نفس هذا اليوم أنها ذاهبة إلى الرحاب لترى ابنتها هايدي وياسين ، ثم تعود رغم الوقت المتأخر للمبيت معه ، والحقيقة أنها لم تكن ذاهبة إلى هايدي وياسين .. كانت ذاهبة إلى الشيطان يعقوب .

كان يعقوب نائما على الرصيف بجوار السور الجانبي للحديقة .. وقفتْ سيارة جيب بجانبه على الطريق الواسع الخالي مِن السيارات في الغالب .. ضغطتْ صاحبتها على الكلاكس كثيرا حتى استيقظ يعقوب وهو يضغط عينيه ليرى مَن يتعمد إيقاظه ، ظن منذ الوهلة الأولى أنَّ أحدا سيعطيه مالا أو طعاما كما يحدث كثيرا في كل يوم ، فحياة المجانين تقوم على ذلك ، لكن كانت سعادته غامرة عندما رأى المتسولة وعد هي مَن تطل بعينيها مِن السيارة .. انتفض مِن مكانه مسرعا ..

ابتسم ابتسامة النصر والزهو بنفسه .. راح لثوانٍ ينظر مِن نافذتها إليها ، ثم يُدير عينيه على السيارة مِن داخلها وخارجها حتى قالت له :

- اركب

فتح الباب فإذا بها تمدُّ يديها خلفها لتسحب مفرشا بلاستيكيا .. بسطته تحته وخلفه قبل أنْ يرمي جسده الضخم .. فعلتْ ذلك حتى لا يتسخ المقعد مِن ملابسه .. انتبه لما فعلته فنظر لها وقال في غضبٍ :

- سأقبلها منكَ هذه المرة فقط لأنك لم تعرفيني بعد بعيدا عن الجنون

فضحكتْ وعد ضحكة استهزاء وقالت :

- أنتَ مغروريا يعقوب

- وأنتِ ساحرة جدا .. وفوق ذلك أنتِ غنية .. سيارتك وحدها تساوى أكثر مِن مليون جنيه .. كان يجب أنْ أعمل متسولا مِن البداية .. فهذا أفضل مِن الجنون

- دَعْ عنكَ هذا الحقد والحسد فهذا لا يؤثر فيَّ .. أنا بالنهاية متسولة

- صدقيني أنتِ أجمل متسولة رأيتها في حياتي

- يعقوب لا تحاول .. فلن تصل لشيء معي مما يدور بذهنك

- وها أنتِ ذكية أيضا .. لذلك لن أيأس .. فذكاء المرأة يثيرني أكثر مِن جسدها

- اعلم يا يعقوب أنكَ آخر مَن أفكر فيه

- هل لمالك علاقة بذلك؟

- لا شأن لكَ بذلك

- إذن لماذا أتيتِ لي؟

- بسبب ما قاله لي مالك عن شرك ومكرك

- هل قال لكِ مالك ذلك عني؟

- مالك لا يُخْفِي عني شيئا
- يا لحظكَ يا مالك!

وأوقفتْ وعد سيارتها بجانب السور ، وكانت قد دارت حوله أكثر مِن ثلاث مرات .. قالت له :

- يعقوب هل تريد بعض المال؟
- طبعا فأنا أعيش فقط لأجمع المال
- هل تملك قلبا شجاعا؟
- طبعا طالما سأحصل في النهاية على المال
- وهل تحفظ السر؟
- أنا مجنون .. والناس لا تصدق المجانين فلا تخافي
- لهذا اخترتكَ يا يعقوب
- ماذا تريدين؟
- مهمة بسيطة
- ما نوعها؟ .. نصب أم سرقة أم .....؟
- ستقتل شخصا
- أنا موافق